تاريخ التمثيل

مقدمه

التمثيل ركن مهم من أركان الرقى والتقدم . لاغنى عنه لامة تريد الاخذ باسباب المدنية الحقة . فهو أكبر مهذب لأخلاق بنيها . وأعظم مقوم لالتواء ميولهم ونزغات نفوسهم . وقد عرفت قدره الشعوب الراقية فاحلته فيها المحل الارفع . واعتنت به حكوماتها ومدت الى القائمين به يد المساعدة المادية لينفقوا عن سعة فى سبيل اعلاء شانه ورفع مناره . فكانوا عند ظنها بهم فنهضوا بالفن نهضة سمت بالاخلاق ونزهتها عن كل شائبة . مستخلصة منها كل نزوة تسف بها وكل ميل يشينها .

ولما كان التمثيل عندنا لم يشب بعد عن الطوق لانا لم نزل عالة فيه على غيرنا فلا يمثل على مسارحنا غير القطع الافرنكية دون ان يكون لنا تمثيل شعبي رأينا أن نضع مؤلفا نبين فيه منشأ هذا الفن وتطوراته وأسباب تقدمه ورقيه من آن مولده الى يومنا هذا . مبتدئين بنشأته عند اليونان وانتقاله الى الرومان فالفرنسيين والاسبانيين والبرتوغاليين والانجليز والالمان فنلخص كل المؤلفات التى وضعت فيه عند هذه الشعوب . ونعلق عليها ونبدى ماعن لنا فيها . محللين نفسية كل مؤلف . فيتسنى لنا بذلك الاقتداء بمن تقدمنا محتذيين حذوهم فى سيرهم فنسلك الطريق الممهد متبعين الجدد آمنين العثار حتى ننهض به ونبلغه عندنا المكانة التى بلغ اليها فى اوربا .

الملاهى

ان كلمة ملهى (١) كانت فى الازمنة اليونانية الغابرة تطلق على مكان الحفلات التى كانت تقام لسيرس رب الحصاد ولباخوس اله الخمر . ثم تسمت بها الابنية المشيدة لاستقبال مندوبى المدن القادمين لحضور مساجلات الشعر الموسيقى (٢) ولسماع التمثيل المشجى المضحك (٣)

---

(١) Théatre (٢) Poésie lyrique (٣) Drame

ولم تزل الى وقتنا هذا تطلق على كل بناء تمثل فيه المناظر على اختلاف انواعها دون تطلع الى شكله او كيفية بنائه .

وقد انشئت الملاهى فى بدء الامر للقيام بالحفلات الدينية . ولما كان المطر قليل الغزارة فى المدن الشرقية ولاسيما اليونانية منها شيدت الملاهى فى العراء . وكانت مؤلفة من مظلة من الاغصان وأوراق الاشجار تعلو مذبح الالهة المقام امام تجويف واد او فى مكان مستدير من سفح أكمة قد هذبته يد الانسان ومهدت نشازه . فاذا عدمت الامكنة الطبيعية استعيض عنها بصقائل مدرجة تمكن الحضور وقوفا كانوا أو جلوسا من مشاهدة الكاهن وهو يقيم الصلاة دون أن يحجب بعضهم بعضاً . ولما تبسطت هذه الحفلات بما اضيف اليها من الرقص وفرق الهازجين والمغنيين (١) ومساجلات الشعر الموسيقى وتمثيل الحوادث المضحكة المبكية الحقيقية وغير ذلك من المواد التى أطالت مدتها وزادت فى اهميتها تطلب هذا التبسط مجالا للممثلين أكثر اتساعا فنشأ عن ذلك المسرح (٢) واستلزم أيضاً أيجاد محال للحضار (٣) أكثر ملاءمة من المجالس المنقورة فى الصخور واشد متانة من الصقائل الموقتة فتولدت من ذلك القاعة (٤)

ولبثت القاعة والمسرح من الوجهة الهندسية مع ماتبعهما من الملحقات بتوالى الزمن الجزئين الاساسيين للملاهى حتى يومنا هذا .

تشييد الملاهي

يغلب على ظن الباحثين ان اول ملهى متين شيد فى البلاد اليونانية هو ملهى ديونيزوس (٥) الذى اقيم فى اثينا نحو سنة ٣٣٠ قبل المسيح وقد غطت معالمه سافيات الزمن حتى

---

(١) choeur (٢) La scène

(٣) ترجمنا كلمه Zipectateur الفرنسية بكلمة حضار أو حضور ولم نشأ مجاراة البعض الذين ترجموها بكلمة نظارة . لانها تلتبس على معظم الناس فيخلطون بينها وبين نظارة المعروفة . ولا ندرى لماذا يجهدون انفسهم فى البحث عن كلمة غريبة وبين ايديهم كلمات عدة تؤدى معناها الحقيقي . وهذه الكلمات كثيرة الشيوع وهي حضور ومتفرجون وحاضرون وحضار .

(٤) La Salle (٥) Dionysos

كشف عنها المهندس الألمانى ستراك فأظهر كلياته وجزئياته سنة ١٨٦٢ . وتلاه ملهى هركيلانوم فقد بنى فى مستهل القرن الأول المسيحى على النمط اليونانى البحت . ولم تشد ملاه فى العصور الوسطى لكنهم رمموا ما أبقت عليه الأيام من الملاهى الرومانية

وفى القرن الثانى عشر عندما طفقوا يمثلون الروايات ذات المواضيع الدينية المسماة بالأسرار (١) وأنواع الدرام المدعوة المجون (٢) وضروب الهزل الساقط المسمى البهل (٣) كان جل اعتمادهم على الصقائل الموقتة المشيدة فى العراء أو فى الباحات الرحبة فيقيمون قبالتها مسرحا لا رواء له ولا بهاء يقف عليه الممثلون . وقد يجلس فيه بعض من سراة القوم وعليتهم ويلبث سائر الحضور وقوفا أوجلوساً على الصقائل حتى انتهاء التمثيل

وفى سنة ١٥٨٠ شاد بلاديو فى فيسانس أول ملهى حجرى فاستنعى صيته وكثر الاقبال عليه . ولبث على حاله لم تؤثر فيه عوادى الدهر إلى الآن

كيف يجرى التمثيل

كانت الفواجع فى أواخر القرن السادس قبل المسيح تمثل فى ملاه منقورة فى سفوح الآكام . فكانوا ينحتون مجالس الحضار فى الصخور على شكل نصف دائرة مدرجة قد تسع عشرين الف متفرج . ويقيمون فى أسفلها فسحة مبلطة أو ممهدة يطلقون عليها اسم ساحة الرقص أو الاركسترا . فى منتهاها تجاه الحضور مسرح من الخشب لا رواء له تعهدته يد التحسين فأكسبته مع الزمن رونقاً وبهاء حتى أنه بلغ فى غضون القرن الخامس حداً يملأ العين بهجة وارتياحا . فكان مقدمه فى عهد إيشيل محاطاً بجناحين لم يترك لنا التاريخ وصفاً بيناً لهما . ومحلى بزخرف (٤) متحرك قد تعاون الرسام والنحات والنقاش فى تزويقه وتزيينه . فكان يتدلى منه ألواح خشبية مرصعة بأشكال هندسية بارزة . ورسوم جميلة تمثل تصاوير شتى أهمها تصويرة قصر التى فضلت مع توالى الزمن على ما عداها من الصور

وكان ثمت سطح سوى (٥) متحرك يجرى إذا دفع فيبرز خارج المسرح

---

(١) Mystères (٢) Sotties (٣) Farces (٤) Décor (٥) Piatte-forme

ليظهر مايراد تبيينه من داخل قصر أو معبد . غير انه لم يرشح الينا من أمره مانعتمد عليه لا يضاح حقيقته .

وكان وراء الستار المنقوش آلات متنوعة يستعان بها لاظهار الآلهة فى سماء المسرح ولتقليد لعلعة الرياح وزمجرة العواصف وقصف الرعود .

ولساحة الرقص منفذان . واحد الى يمين المتفرجين لدخول جوقة الهازجين والراقصين (١) . والآخرين الى يسارهم لخروجها .

وكانت هذه الفرقة تجول فى الفسحة طبقاً لمقتضيات الفاجعة . فتارة تسير بصفوف مرصوصة . وطوراً تمشى تلو بعضها . ومرة تتجمع امام المسرح ساكنة هادئة . واخرى تدلف باقدام موزونة وتنشد مصحوبة بتوقيع ناى . وترقص رقصاً وئيداً رزيناً مختلفاً اختلافاً كلياً عن رقص المضحكات الصخب .

هذه الفرقة هى العامل الاساسى فى تكوين الفاجعة ومع أن اهميتها زادت بتعاقب الايام غير انها ساعدت فى أول امرها أى فى بادىء القرن الخامس مساعدة فعالة فى ايجاد التأثير الفاجعى سواء اكان برخامة اصواتها أو برشاقة حركاتها او برونق ملابسها المتناسقة .

وكان الممثلون يمكثون عادة امام المسرح . وقد ظن البعض طويلا انهم كانوا يقفون على منبر يشرف على ساحة الرقص لكن الابحاث الدقيقة التى أجريت حديثاً اظهرت فساد هذا الزعم لان بعد المدى بين الممثلين وجوقة الهازجين والراقصين . وفصل هذين عن بعضهما وهما يؤلفان وحدة تكاد تكون تامة يجعلان تمثيل الفاجعة قتئذ من اشق الامور .

ومما يزيد ما قدمناه تأكيدا ان الممثلين كانوا فى اكثر الاحيان يدخلون من ساحة الرقص معتلين العربات ومصحبتهم الاشخاص الثانويون (٢) كما ان لفرقة الهازجين والراقصين ان تتقدم اذا اقتضى الامر حتى مدخل القصر . لكنه كان من المحتم على الاولين ان يلبثوا اثناء الرواية مجتمعين على مقربة من الزخرف الداخلى بينما جوقة الهازجين والراقصين تقف فى ساحة الرقص على مدى قريب منهم .

واذا كان الزخرف يمثل قصراً أو ضخرة أو معبداً يصعد اليه بدرج . كان يتسنى لبطل الرواية ولغيره من الممثلين ان يعتلوا نشزاً يعرضهم بشكل أوضح

---

(١) Chocur (٢) Figurants

لانظار المتفرجين . غير ان هذا كان نادر الحصول .

ولما كانت فروض العبادة عند اليونان تحتم على القائمين بها سدل الحجب على وجوههم سرت هذه العادة الى ممثلي المآسي المشتقة من الطقوس الدينية . فكانوا يقومون بالتمثيل وهم مقنعون . غير انهم كانوا يجدون صعوبات جمه فى تأدية التأثير المطلوب لان الوجه وهو مرآة العواطف كان متواريا بسدل صفيق يحول بينهم وبين الاستعانة بأساريره على التعبير بدقة عن الشعور الذى تكنه أفئدتهم . فكانوا يعتمدون فى تأدية ذلك على العينين واليدين ونبرات الصوت وحركات الجسم .

وقد أكد لنا المؤرخون أن الممثلين بهذه الوسائل المحدودة اجادوا اجادة نهضت بالفن فاملى ارادته على المؤلفين الذين اضطروا فى مسرى القرن الرابع الى وضع أدوار خصوصية لبعض الممثلين .

ولم تقتصر الصعوبات التى يلاقيها الممثلون على الحجب بل تعدتها الى الملابس التى كانت فضفاضة ضافية الاذيال واسعة الاردان تعيق كل حركة من حركاتهم . فقد كانت فى عهد إيشيل أو قبله مؤلفة من طيلسان عريض مزخرف يتدلى الى الارض أشبه شيء بطيالسة أقسة الاله باخوس . فيكسب لابسه مهابة كهنوتية .

وكان الممثلون يتهادون بهذه الملابس منتعلين أحذية عالية . فيبدون بقاماتهم غير العادية كانهم عمالقة . ولذا كان بطل الرواية تستشفه العين لاول وهلة دون ان يحتاج الحضور الى الاستدلال عليه من سياق الحديث . لان الاشخاص الثانويين كانوا يرتدون ملابس عادية تميزهم عن الملوك والمندوبين وأنصاف الآلهة .

وقد كانت هذه المظاهر الخلابة تزيد فى أهمية الادوار وتكسب الفواجع سيماء الفخامة والجلال .

أصل الدرام المفجعة ونظامها

كان اليونان فى كثير من عباداتهم يقومون بتمثيل الأساطير المختصة بالالهة التى يحتفلون بها فكانوا يجتهدون بتمثيل فعالها وآلامها بقدر ما أوتوا من مقدرة وعلم . فنشأ من ذلك الدرام التى برزت إلى عالم الوجود فى القرن السادس قبل المسيح .

لأن الخرافة الدينية المتبعة فى عبادة الاله باخوس كانت تعبر فى جوهرها عن الحوادث المتعاقبة فى زراعة الكرم ونموه . وكانت تارة فرحة وأخرى ترحة شأن كل أسطورة لها مساس بحوادث الطبيعة . ففى أوان قطف العنب كانوا يقومون بأفراح صخابة يردفونها فى الربيع بأعياد لا تقل عنها جلبة وضجيجاً . فاذا نقلنا هذه الحوادث إلى لغة الأساطير كان منها تاريخ لاله يتألم حيناً ويبهج أحيانا . تتجلى فى طقوس عبادته العواطف المتباينة والأهواء المتضاربة التى تظهر فى الأعياد التقليدية بمظاهر الفرح الصخابة . فيعلو ضجيج المحتفلين وترتفع قهقهاتهم ويتواصل مجونهم ويخرجون عن حد الرزانة فى الزى والتعبير . فتولدت من ذلك المضحكات . ثم تظهر تلك العواطف بمظاهر أخر متنافرة متباينة فتتجلى بنواح وعويل وتوجع وتفجع وأناشيد محزنة . تبدو من خلالها صورة مبهمة للقضاء والقدر المسيرين بتقلباتهما المؤلمة بقوات علوية غير منظورة . ومن هذا ستخرج التراجيدى (١)

ولم تقتصر عبادة الاله باخوس على تقديم العواطف للدرام (٢) بل أوجدت لها أيضاً المبادىء الأساسية المكونة لأصولها بتقويتها الميل الفطرى لتقليد الأخلاق والعادات (يتبع) جورجى نيقولاوس

(١) قطعة تمثيلية تبدى حادثة خطيرة وقعت بين أناس ذوى مكانة وشهرة عالية وتدخل فى القلب الذعر والرعب أو الرأفة والحنان

(٢) قطعة تمثيلية يمتزج فيها المضحك بالمشجى